يوسف عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (يوسف٢٣)

صدق الله العظيم

مرت الأيام. .وتقدمت الإنسانية. .وبزغت شمس الحضارة المصرية الفرعونية، تلك الحضارة السابقة التى لم ينقصها إلا الإيمان برسالة سماوية، لا تلك التى كانوا عليها بتقديس فراعنتهم وعبادتهم. .

ومع الفراغ الروحى التى كانت تشكو منه مصر فى ظل حضارتها القديمة، إلا أنهم عرفوا التوحيد أيام إدريس، وفى عهد اخناتون. . ولكن سرعان ما جرفهم تيار العودة إلى تقديس الفراعنة وآمون رع. . وغير ذلك من الاعتقاد البعيد عن التوحيد الذى نادى به الأنبياء من آدم حتى خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام وبنوه من بعده.

كان إسماعيل عليه السلام ينادى بالتوحيد فى الحجاز. . وكان إسحاق ينادى بالتوحيد فى فلسطين. . وكذلك ابنه يعقوب الذى كان له أولاد كثيرون منهم يوسف عليه السلام الذى حباه الله وسامة وذكاء، حتى غار منه إخوته. . وذات يوم رأى يوسف عليه السلام رؤيا قصها على أبيه يعقوب «إسرائيل» بن إسحاق. . فقد كانت هذه الرؤية أن يوسف رأى أحد عشر كوكبا والشمس والقمر يسجدون له. . وفهم الوالد تأويل هذه الرؤيا بأن يوسف سوف يتبوأ فى حياته

مكانة رفيعة، وخشى عليه من إخوته غير الأشقاء، فطلب منه ألا يقصص رؤياه على أحد، ولكن الأقدارلابد أن تسير فى طريقها . .

فقد كاد إخوة يوسف له بالفعل، وطلبوا من والده أن يأخذوا أخاهم معهم لكى يلعب ويلهو، وكان عمره ست سنوات، ثم عادوا إلى أبيهم عشاء يبكون، مدعين أن الذئب قد أكله، وجاءوا له بقميصه الملطخ بالدماء الكاذبة حتى قنعوا والدهم بأن الذئب قد أكله بالفعل، بينما قد تخلصوا منه بإلقائه فى بئر!

وقد أشار القرآن الكريم إلى اسم يوسف عليه السلام فى عدد كثير من السور، وأفرد له سورة كاملة «سورة يوسف» قص فيها القرآن الكريم قصة هذا النبى الكريم، وما لاقاه فى حياته من مؤامرات إخوته، إلى مؤامرة زوجة العزيز عندما شغفت به حبا، وإلقائه فى السجن، إلى أن خرج ليمارس حياته متقلدا خزائن مصر، ودعوته إخوته وأبويه ليعيشوا بجواره فى أرض مصر.

القصة كما يصورها القرآن الكريم، فى تسلسل جميل، وإيقاع خلاب، وتماسك فنى معجز. . يبدأها برؤيا يوسف عليه السلام. . ونصيحة الأب له:

﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ

أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ [يوسف: ٥، ٦].

وكان حدس يعقوب صحيحا، فقد كره إخوته إن يؤثر أباهم عليهم يوسف لوسامته وذكائه، وطلبوا من والدهم أن يأخذوا أخاهم معهم ليلعب ويرتع، وأنهم سيحافظون عليه، وطمأنوا والدهم بأنهم عصبة، وبالتالى لا خوف عليه من أن يأكله أحد الذئاب.. وأخذوا يوسف وألقوه فى أحد الآبار!

وجاءوا أباهم عشاءً مدعين أن الذئب قد أكله وجاءوا بقميصه ملطخا بدماء كاذبة.. قائلين لوالدهم أن الذئب أكله عندما كانوا يستبقون، ولم تنطل هذه الحيلة على الأب وصبر لأمر الله.

ومرت قافلة بجوار البئر، وألقى أحد أفرادها بدلو للشرب، فتعلق به يوسف، وفرحت القافلة بهذا الغلام الجميل الذى باعوه لعزيز مصر، وكانت امرأة العزيز عاقرا لا تنجب، ففرحت به فرحا شديدا.

ويشب يوسف.. فإذا به يزداد وسامة ورشاقة وذكاء وراق الفتى فى عين امرأة العزيز «زليخا».

ولكن يوسف رفض أن يخون عزيز مصر الذى أحسن رعايته، ورأى أنه لا يحق له أن يجرى وراء نزوات هذه السيدة. وكان لعزوف يوسف عن مبادلة زوجة العزيز الحب، دافعا لامرأة العزيز أن تصر

على أن تحقق ما تهفو إليه نفسها من نزوات مهما حاول يوسف الابتعاد عن مجاراتها فى أهوائها.

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ [يوسف: ٢٣ - ٢٥].

ويقول الرواة أنه عندما رفض ما طلبته منه واتجه صوب الباب، جذبته من قميصه فشق من الخلف، وعندما وجدت زوجها بصحبة ابن عمها عند الباب.. حاولت إقناعه أن يوسف أراد أن يراودها عن نفسها ولكنها أبت، ودافع يوسف عن نفسه بأنه لم يفعل ذلك ولكن فراسة ابن عمها أيقنت أنها هى التى راودت يوسف، لأن قميصه مقطوع من الخلف، ولو كان هو الذى همَّ بها لقطع من الأمام.. وما كان منه أو من زوجها إلى أن قالا لها: ﴿ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ وطلب منها أن تستغفر لذنبها.

ولقد وقف المفسرون طويلا أمام جملة ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ قال بعضهم أن يوسف كاد أن يقع فى المعصية لولا أنه

تذكر الله فخاف وتراجع، وقال البعض الآخر أنه رأى جبريل. وقال آخرون.. بل أنه شاهد وجه أبيه.

ومهما كان الاختلاف فى التفسير، فإن الله قد وصف يوسف عليه السلام بأنه ﴿مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾.. وعباد الله المخلصين ليس للشيطان عليهم سبيل لقوله تعالى:

﴿فبعزتك لأغوينهن أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين﴾[ص: ٨٣].

فيوسف نبى ابن نبى.. ويوسف لا ينسى أن الله أنقذه من غيابة الجب، وأن الله كان به رحيماً عندما أصبح عند عزيز مصر فى منزلة الابن ليعيش عنده مكرما منعما.. وهو سليل الأنبياء.. فمن المستحيل أن يراود هذه السيدة عن نفسها..

لقد عصمه الله على كل حال.. وشاع الخبر فى المدينة، وأنكر الناس أن تقع امرأة العزيز فى هذا الجرم، وعندما علمت امرأة العزيز بذلك.. أقامت وليمة ودعت نساء المدينة إليها.. إنها تريدهم أن يعرفوا أنفسهم بأنفسهم، ويقدرون موقفها من هذا الشاب البالغ الوسامة، عندما دخل عليهن يوسف، انبهرن بوسامته الفائقة حتى أنهن أخذن يقطعن أيديهن. وهن لا يدرين بذلك ـ بما معهن ـ من السكاكين التى يقطعن بها الطعام.. وقلن: ﴿حاش لله مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾.. وهذا المشهد جعل الحب يشتعل أكثر فى قلب امرأة العزيز، وصممت على أن تحقق معه ما تريده!.

وفطن العزيز للأمر، وخوفا من الفضيحة أمر أن يزج به فى السجن إلى حين، حتى يقطع ألسنة الناس بالخوض فى هذا الحديث، وحتى يوقن الناس أن العزيز ما سجنه إلا لأن امرأته بريئة، وهذا ما عبر عنه القرآن الكريم فى قوله تعالى:

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [يوسف: ٢٣٩].

وفى السجن نرى مشهد آخر من حياة هذا النبى الكريم.. لقد كان يدعو إلى التوحيد وعبادة الله الواحد، والأخذ بما جاء فى الصحف التى نزلت على جده إبراهيم الخليل، واشتهر فى السجن بقدرته على تأويل الأحلام..

ودخل معه السجن فتيان.. ساقى الملك وخبازه.. وقد رأى كل منهما رؤية قصها على يوسف عليه السلام ليفسرها لهما..

قال ساقى الملك: أنه رأى نفسه فى المنام وهو يأتى بعنقود العنب ويعصره فى كأس الملك.

وقال الخباز: ورأى أنه على رأسه طبقا من الخبز وقد سارعت الطير لتأكل منه.

وفسر لهما يوسف حلم كل منهما.

قال للأول: أنه سوف يسقى الملك خمرا.

وقال للثانى: أنه سوف يصلب فتأكل الطير من رأسه.

والتفت يوسف الصديق إلى الساقى، وقال له: اذكرنى عند ربك.. أى عند الملك.. ولكن الشيطان أنساه ذلك، فلبث يوسف فى سجنه بضع سنين.

﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ ﴾ [يوسف: ٤١].

وفى سورة يوسف: ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾.

ومرت سنوات.. وجاء الفرج ليوسف عليه السلام، عندما حلم الملك أنه رأى سبع بقرات سمان قد خرجت من النهر وتبعها سبع بقرات عجاف قبيحة المنظر هزيلة، فأكلت البقرات السمينة. وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات.

وأراد الملك أن يجد تفسيرا لما رأى، ولكن الكهنة عجزوا عن تفسير هذا الحلم العجيب.. ساعتها تذكر ساقى الملك يوسف عليه السلام وقدرته على تأويل الأحلام، وذكر للملك ذلك، فأبطأ فى طلبه.. ولكن الحلم استبد بالملك لدرجة أنه كان مصرا على تأويله، ولم يأبه بقول الكهنة له إن ما رآه مجرد أضغاث أحلام.

﴿ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ ﴾ وأمر الملك ساقيه أن يذهب إلى السجن، ويقص الرؤيا على يوسف، ويعود بالتأويل..

قال الساقى ليوسف ما رآه الملك فى حلمه، وفسره له يوسف عليه السلام بأن مصر سوف يمر عليها أيام تنبت فيها الأرض، وتجنى الخيرات لمدة سبع سنوات، تعقبها سبع سنوات تجدب فيها الأرض.. وأن النصيحة التى يسديها للملك أن يدخر الغلال فى سنابلها حتى يمكن الاستعانة بها فى سنوات القحط!

وسُر الملك لهذا التفسير، وطلب حضور يوسف.. ولكن يوسف رفض الحضور إلا بعد أن يعرف سبب سجنه وهو البرىء الذى لم يقترف إثما.. وأن على الملك أن يسأل عن النسوة اللاتى قطعن أيديهن!.

وأنكر النسوة أن يكون يوسف قد أتى بإثم يستحق عليه السجن كما أنكرن أنهن يعرفن شيئا عما ادعته امرأة العزيز.. وعندما سئلت امرأة العزيز اعترفت بأن يوسف برىء.. وأنها هى التى راودته عن نفسه.

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [يوسف: ٥٠ - ٥٣].

وعندما ظهرت براءة يوسف، وحضر لمقابلة ملك مصر، أعجب الملك به وبمنطقه، وعندما سأله عن الوظيفة التى يريد أن يتقلدها عند الملك، طلب يوسف أن يكون على خزائن الأرض، واستجاب له الملك وبذلك تحقق حلم يوسف بالمكانة العالية التى سوف يصل إليها، والتى حسده عليها اخوته وكادوا له وألقوه فى غيابة الجب، للتخلص منه.. إن قدر الله واقع ولا يمكن لكائن من خلقه أن يحول دون تحقيق ما يريده الله.

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [يوسف: ٥٤ - ٥٧].

وتقول التوراة أن الملك جعله على خزائن مصر، وزوجه بنت كاهن «أور» واسمها «أسنات بنت فوطى فارع» وسمى يوسف «صفنات فعنيح».. وكان يوسف عمرة ثلاثين عاما.

ويقول الإمام ابن كثير: «وعند أهل الكتاب أن فرعون عظم يوسف عليه السلام جدا، وسلطه على جميع أرض مصر وألبسه خاتمه، وألبسه الحرير وطوقه الذهب وحمله على مركبه الثانى، وتوجه بين يديه، انت رب ومسلط، وقال له: لست أعظم منك إلا بالكرسى.

قالوا: وكان يوسف إذ ذاك ابن ثلاثين سنة، وزوجه امرأة عظيمة الشأن وحكى الثعلبى أنه عزل قطفير عن وظيفته وولاها يوسف. وقيل أنه لما مات تزوج امرأته زليخا فوجدها عذراء، لأن زوجها كان لا يأتى النساء. فولدت ليوسف عليه السلام رجلين هما: افرايم ومنسا. قال واستوثق ليوسف مُلك مصر، وعمل فيهم بالعدل فأحبه الرجال والنساء».

وتمضى خطى الأيام والسنين.. ويسود الجدب البلاد.. وعم فيما عم بلاد كنعان.. وجاء إخوة يوسف إلى مصر طلبا للغلال، وعرفهم يوسف، ولم يعرفوه بالطبع، فلم يكن يدور بخلدهم أن يوسف قد وصل إلى هذه المكانة فى مصر، بل إنهم لم يكونوا يعرفون شيئا عن يوسف بعد أن فعلوا فعلتهم النكراء..!

لقد استفسر عن أحوالهم.. وقالوا له إنهم اثنى عشر ولدا، ذهب أخوهم «يوسف» وبقى أخوه مع والده.. فطلب منهم أن يأتوا بأخاهم غير الشقيق عندما يقدمون فى العام القادم.. هددهم بأنه لن يعطيهم شيئا إذا لم يحضروا معهم «بنيامين»..!

ومع إقبال العام القادم طلبوا من أبيهم أن يأتى معهم «بنيامين» حتى يمكنهم الشراء من مصر، وإلا منعهم العزيز من ذلك، وبعد إلحاح وافق يعقوب بعد أن أقسموا له أنهم سوف يحافظوا عليه، ويعودوا به سالما.

﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ [يوسف : ٦٦].

وما جاء فى التوراة قريب مما جاء فى القرآن الكريم، وملخص ما جاء فى التوراة «أن يوسف عندما عرف إخوته.. طلب منهم أن يحدثوه عن أحوالهم وأخبروه بأن لهم أخا يدعى «بنيامين» مع والده إسحاق، ولكن يوسف اتهمهم بأنهم جواسيس، وأنه سوف يحجز أحدهم، حتى يأتوا بأخيهم بنيامين، ليتأكد من صدقهم، وعندما جاءوا فى العام التالى وقد وجدوا ثمن بضاعتهم فى متاعهم، جاءوا بهدايا له، وبالفضة التى تركها لهم فى متاعهم، والفضة التى سوف يشترون بها البضاعة الجديدة. وعندما جاءوا ومعهم «بنيامين» .. أولم لهم يوسف وليمة ودعاهم إلى داره».

ونمضى لنرى مشهداً آخر من قصة يوسف عليه السلام.. إنه أراد أن يستبقى معه أخوه بنيامين، ورسم لذلك حيلة بأن وضع (طاسة) فى أمتعة أخيه، وهذه الطاسة هى التى كان يشرب بها يوسف، ثم اتهمهم بالسرقة، وأمر بتفتيش أمتعتهم وتوعد من توجد (الطاسة) فى بضاعته. وأخذ يفتش أمتعة الآخرين قبل أمتعة بنيامين.. وعندما فتشوا متاع بنيامين وجدوا هذه الطاسة.. !!

أخذ الأخوة يستعطفون يوسف أن يأخذ أحدا منهم بدلا منه، ولكن يوسف رفض ذلك، واستبقى أخيه معه، وتركهم يرحلون إلى والدهم.

وعلم يعقوب «اسرائيل» بالخبر. فزاد حزنه، ولام أولاده على ما فعلوه بأخيهم كما فعلوا ذلك من قبل بيوسف.

والقرآن الكريم يقص ذلك بأسلوبه المعجز فى سورة يوسف:

﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾

وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [يوسف: ٧٠ - ٨٧].

وأقبلوا بعد ذلك على يوسف ومعهم بضاعة ضعيفة لا يمكن أن يستبدلوا بها بضائع مصرية توفر لهم مئونة الحياة فى فلسطين، وطلبوا منه أن يتصدق عليهم، وقد فسر بعض المفسرين هذه الصدقة بأن يرد إليهم أخوهم بنيامين.

وعرف يوسف الصديق ما هم فيه من سوء حال، فتحركت فى نفسه نوازع الرحمة وقال لهم:

﴿ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [يوسف: ٨٩].

أيقنوا عندما قال لهم هذا أنهم فى حضرة أخيهم يوسف، وأن يوسف قد تحقق حلمه، وأصبح عزيز مصر، فقالوا له:

﴿ قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ﴾.

﴿ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي ﴾ .

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ .

﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾ .

وأمرهم أن يذهبوا بقميصه، ويضعوه على عينى أبيه، سوف يرتد إليه بصره الذى ذهب حزنا عليه . . وطلب منهم أن يأتوا بأهلهم جميعا ليعيشوا على أرض مصر معه .

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ ﴾ [يوسف: ٩٤ - ٩٨].

لقد جاءوا إلى مصر ليعيشوا على أرضها،

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ رَبِّ

قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [يوسف: ٩٩ - ١٠١].

ويقول الإمام ابن كثير: «هذه أخبار عن حال اجتماع المتحابين بعد الفرقة الطويلة، التى قيل انها ثمانون سنة، وقيل ثلاث وثمانون سنة، وهما روايتان عن الحسن وقيل خمس وثلاثون سنة، وقال قتاده، وقال محمد بن إسحاق: ذكروا أنه غاب عنه ثمانى عشرة سنة. قال: أهل الكتاب يزعمون أنه غاب عنه أربعين سنة».

ويورد ابن كثير الروايات المختلفة عن عدد من جاءوا مع يعقوب، فالبعض قال أنهم كانوا ثلاثة وستين إنسانا والبعض الآخر قالوا: كانوا ثلاثة وثمانين إنسانا، وهناك قول آخر بأنهم كانوا ثلاثمائة وتسعون. وأنهم عندما خرجوا مع موسى بعد ذلك كانوا أكثر من ستمائة ألف مقاتل وفى نص أهل الكتاب كانوا سبعين نفسا.

لقد استقر المقام بيوسف وأهله فى مصر.. وأعطاهم ملك مصر إقليم الجوش شرق الدلتا تكريما لخدمات يوسف واعترافاً بفضله فى إنقاذ مصر من المجاعة التى حلت بها سبع سنوات.

وقد جمع يعقوب قبل وفاته أبناءه، ووصاهم بنفس الوصية التى أوصى بها جدهم إبراهيم الخليل وأبوه إسحاق.. إنه يشعر بدنو الأجل، وأنه سوف يموت فى أرض غريبة..

سأل أولاده: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي ﴾ ؟

﴿ قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [البقرة: ١٣٣].

وشعر يعقوب بالسعادة تغمر قلبه وهو يستمع إلى أبنائه، وحرصهم على الإيمان، واتباع طريق إبراهيم وإسماعيل وإسحاق..

كانت سعادة يعقوب، الذى سمى «إسرائيل».. بمعنى الذى سار ليلا مباركا مع أبيه إسحاق هربا من أخيه «العيص» أو عيصو..

وعندما مات يعقوب «إسرائيل» أوصى أن يدفن بجوار جده الخليل وأبوه إسحاق، بعد أن عاش بمصر سبعة عشر عاما، وقد نفذ يوسف وصية أبيه حيث دفن بالمغارة التى دفن فيها الخليل، وإسحاق.

ومرت الأيام والسنون.. وعندما حضر يوسف الموت كانت وصيته أن يحمله أهله ليدفن بجوار أبيه وأجداده. وقد حنطوا جثمانه، ووضعوه فى تابوت، ودفنوه، وكان عمره مائة وعشر سنة، وعندما خرج بنى إسرائيل من مصر فى عهد موسى عليه السلام، أخذوا جثمان يوسف معهم حيث دفن مع أجداده حسب وصيته.

وقصة يوسف عليه السلام بكل جمالها وجلالها ليست حكاية للتسلية ولكن الله تعالى قصها على نبيه محمد عليه الصلاة والسلام ليتأسَّ بها وليعرف المؤمنون كم فيها من معنى عظيم.. فيوسف قد تحمل فوق طاقة البشر وهو مازال فتى يافع السن.. عذبه إخوته..

ورموه فى أعماق الجب.. وبيع بثمن بخس دراهم معدودات، ثم عانى الغربة والاغتراب فى أرض غريبة عنه، وحرم الحنان الخالد متمثلا فى أبيه وأمه، كما فجع فى أقرب الناس إليه وهم إخوته الذين كادوا له ودبروا له كل هذه المصائب حتى يخلو لهم وجه أبيهم.. وأنه فى غربته تلك يعيش فى بيت العزيز فتراوده زوجته الحسناء عن نفسه، فتأبى نفسه التى تطبعت بطباع بيت النبوة أن تنزلق إلى هاوية الفحش، ويفضل السجن على الخيانة.. وفى السجن يدعو إلى ما كان يدعو إليه الخليل وابنيه إسماعيل وإسحاق، ووالده يعقوب.. يدعوهم إلى التوحيد، والتمسك بالفضائل، ونبذ عبادة الأصنام، وعندما يعلمه الله تأويل الأحلام التى تكون الطريق الذى يوصله إلى الحكم والوصول إلى أعلى المناصب، لا ينسى أهله.. ويعاملهم معاملة كريمة عندما دفعتهم الأقدار فى طريقه.. وعندما يلتم شمل الأسرة يتجه بكل كيانه إلى خالقه العظيم.. شاكرا له أنعمه وأفضاله.. ورعايته بعين الجلالة فى كل مراحل حياته.. كم تعذب.. وكم شقى.. وكم عرف معنى الغربة والاغتراب، ونكران الجميل، ولكن الله كان معه وأنزل على قلبه السكينة.. وكان هو الصابر.. الشاكر.. الحامد.. المقر بعبوديته لله جل علاه..

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

إنه فى كل مراحل حياته شاكرا لله نعمائه.. وعند انتهاء رحلته على الأرض يستشعر جلال الإيمان، وقوة اليقين.. ويترك كل شىء لله.. فهو وليه فى الدنيا والآخرة.. أما منتهى أمانيه أن يموت مسلما ويلحقه ربه بالصالحين!

ويلخص لنا الدكتور محمد سيد طنطاوى فى تفسيره ما قاله صاحب الظلال بقوله: «والسورة كلها لحمة واحدة عليها الطابع المكى واضحا فى موضوعها وفى جوها وفى ظلالها وايحاءاتها، بل ان عليها طابع هذه الفترة الحرجة الموحشة بصفة خاصة.. ففى الوقت الذى كان الرسول ﷺ يعانى من الوحشة والغربة والانقطاع فى جاهلية قريش ـ منذ عام الحزن ـ كان الله تعالى يقص عليه قصة أخ له كريم وهو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وهو يعانى صنوفا من المحن والابتلاءات، محنة كيد الأخوة، ومحنة الجب، ومحنة الرق، ومحنة امرأة العزيز، ومحنة السجن، ثم محنة الرخاء والجاه والسلطان.. فلا عجب أن تكون هذه السورة بما احتوته من قصة ذلك النبى الكريم، ومن التعقيبات عليها بعد ذلك.. تسلية للرسول ﷺ وأصحابه عما أصابهم من أعدائهم، وتسرية لقلوبهم، وتطمينا لنفوسهم.

ولكأن الله تعالى يقول لنبيه ﷺ: كما أخرج يوسف من حضن أبيه ليواجه هذه الابتلاءات كلها، ثم لينتهى بعد ذلك إلى النصر والتمكين. كذلك أنت يا محمد ستخرج من بلدك مهاجرا، ثم تعود إليها فى الوقت الذى يشاؤه الله ظافرا منتصرا.

* * *